

الفكر التربوي عند مالك بن نبي
Educational thought of Malik bin Nabi
بن الذيب جموعي¹

¹ جامعة قاصدي مرباح، ورقلة (الجزائر)، djemouidz39@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/11/17 تاريخ القبول: 2022/05/09 تاريخ النشر: 2023/06/03

ملخص:

الثروة الفكرية هي أثمن ثروة تمتلكها الدول، والجزائر بلد يزخر بإنتاج مفكره على مر العصور، فالفكر التربوي هو أحد جوانب الفكر الجزائري الذي سنسلط عنه الضوء من خلال علمه الفذ الأستاذ مالك بن نبي، الذي مثل فيلسوف الحضارة و النهضة التي لا تكون إلا بالتربية التي يهدف من خلالها مفكرنا إلى التغيير الذاتي والاجتماعي والرجوع بالأمة إلى مضمار الحضارة الذي انحرفت عنه بعد عصر الموحدين، مركزين في دراستنا هذه عن المرجعيات والأسس والأهداف للمشروع التربوي البناني.

كلمات مفتاحية: الفكر، التربوي، التغيير الاجتماعي، الحضاري، مالك بن نبي.

Abstract:

Intellectual wealth is the most valuable wealth possessed by countries, and Algeria is a country abounding with the production of thinkers throughout the ages. Educational thought is one of the aspects of Algerian thought that we will shed light on through his distinguished knowledge, Mr. Through it, we think about personal and social change and return the nation to the track of civilization from which it deviated after the Almohad era, focusing in our study on the references, foundations and objectives of the Lebanese educational project.

Keywords thought, education, social change, civilization, Malek Bennabi.

* المؤلف المرسل: بن الذيب جموعي

1. مقدمة

مثل الأستاذ "مالك بن نبي" صورة فيلسوف الحضارة، من خلال اعتباره أن مشكلة الأمة الإسلامية مشكلة حضارية بالدرجة الأولى مما جعله يقدم مشروعا تربويا يسعى من خلاله إلى إعادة بناء الإنسان وتأهيله قصد المساهمة في تحقيق الإقلاع الحضاري من جديد.

لذلك جاء الفكر التربوي البنابي كمحاولة لإنقاذ الفرد المسلم، ومن ثم المجتمع الإسلامي من مظاهر الجهل والتخلف والانحطاط.

وسنحاول من خلال هذه الدراسة أن نتعرض إلى أهم مرجعيات، وأسس، وأهداف الفكر التربوي البنابي، منطلقين من الإشكالية التالية:

كيف استطاع مالك بن نبي أن يؤسس لفكر تربوي نهضوي؟
وما هي المرجعيات المعتمدة والمآلات المرجوة منه في العالم الإسلامي؟

2. التعريف بالمفكر مالك بن نبي:

هو مالك بن عمر بن لخضر بن مصطفى بن نبي، ولد في 1905/01/01 بقسنطينة من عائلة جزائرية فقيرة، وهذا حال أغلب العائلات الجزائرية إبان الفترة الاستعمارية تدرج مالك بن نبي في مسار التكوين العلمي، حيث حصل على الشهادة الابتدائية سنة 1918م، ثم حصوله على شهادة عدل شرعي سنة 1925م، ثم انتقل للدراسة بفرنسا في معهد اللاسلكي وحصوله على شهادة مهندس، توفي في 1973/10/31 بباريس.

اشتغل في عدة مناصب، منها عدل شرعي بولاية الأغواط أثناء فترة الاستعمار، ومدير للتعليم العالي بعد الاستقلال.

الفكر التربوي عند مالك بن نبي

له عدة مؤلفات حملت فكرة مشكلات الحضارة ومنها: الظاهرة القرآنية، تأملات، شروط النهضة، وجهة العالم الإسلامي، من أجل التغيير، بين الرشاد والتهيه، في مهبط المعركة، مذكرات شاهد القرن، الفكرة الأفروآسيوية... الخ.

1.2 مفهوم التربية عند مالك بن نبي :

يعتبر مالك بن نبي التربية بمثابة التأشيرة التي تسمح للفرد بالدخول في الحضارة المجتمعية، وبها يصبح عددا حقيقيا في المجموعة الإنسانية، بمعنى أن التربية هي عمل اجتماعي يقوم به المجتمع في تحضير وتهئية الفرد ونقله من الحالة الطبيعية الفردية وما تتميز به من غرائزية وأناية إلى الحالة المدنية الاجتماعية المتحضرة، وتهيئته للمشاركة الفعالة في بناء وتطوير المجتمع.

حيث يقول: "إن الطبيعة تأتي بالفرد في حالة بدائية، ثم يتولى المجتمع تشكيله ليكيفه طبقا لأهدافه الخاصة". (مالك ابن نبي، تر: عبد الصبور شاهين، 1986، صفحة 65)

فتصبح التربية عند مالك بن نبي مشروع مجتمع متكامل يهدف إلى تكوين الفرد وتكييفه من المساهمة في التغيير والتجديد الحضاري المنشود.

حيث يقول بن نبي: "ومعنى ذلك خلق شبكة العلاقات القادرة على توحيد الطاقات المنطلقة بواسطة الغرائز، وتوحيدها في صورة نشاط مشترك يقوم به مجتمع، وظيفته تجميع هذه الطاقات الفردية لمصلحته بفضل هذه الشبكة، وهذا هو موضوع التربية الاجتماعية عامة". (مالك ابن نبي، تر: عبد الصبور شاهين، 1986، صفحة 81)

ومعنى هذا أن التربية ذات طابع اجتماعي حيث، تعمل التربية الاجتماعية على استغلال الطاقات الحيوية الفردية وصقلها وتهذيبها في إطار اجتماعي منظم، مكونة بذلك شبكة علاقات عامة بين أفراد المجتمع، خدمة للفرد والمجتمع في الوقت ذاته. حيث يذكر بن نبي معرفا التربية قائلا:

"ليست التربية مجموعة القواعد المفاهيم النظرية التي لا سلطان لها على الواقع، على عالم الأشخاص، وعالم الأفكار، وعالم الأشياء، وليست هي من إنتاج المتعلمين وبحار العلوم الذين يعرفون جميع كلمات المعاجم دون أن يلموا بما تترجم عن هذه الكلمات من وقائع. بل هي وسيلة فعالة لتغيير الإنسان وتعليمه كيف يعيش مع أقرانه وكيف يكون معهم مجموعة القوى التي تغير شروط الوجود نحو الأحسن دائماً، وكيف يكون معهم شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ". (مالك ابن نبي، تر: عبد الصبور شاهين، 1986، الصفحات 99-100)

والمعنى أن التربية ليس تلقين الإنسان وحشوه بالمعارف والمعلومات، وإنما هي أولاً بناء الإنسان وتكوينه وتهيئته للمشاركة الفعالة في المجتمع. فنفهم من خلال ما سبق ذكره عن التربية البنابية، أنها تنطلق من دور المجتمع في تكوين النشأ وتهيئته. فتعتبر بذلك وظيفة اجتماعية مهمتها تعديل السلوك الإنساني وتطويره بهدف تحقيق النهضة الحضارية التي ينشدها بن نبي. خاصة للمجتمع الإسلامي الذي يعاني في غياب التخلف والانحطاط. فيصبح للتربية بعد حضاري، مما يجعلها في ارتباط لمشكلات الحضارة. كما تظهر التربية مركزية الإنسان في الفكر البنابي- هذا المعامل الإنساني الذي كلما زاد الاهتمام به زاد عطاؤه -محققه بذلك تنمية بشرية شاملة.

2.2 مرجعيات الفكر التربوي البنابي :

مالك بن نبي كمفكر يعتمد على مصادر ومرجعيات، منها ما هو واقعي معاش، ومنها ما هو فكري.

التجربة الواقعية: إن تناول التجربة الواقعية لابن نبي وتأثيرها على فكره التربوي يكون وفق المجموعات الآتية:

2.2.1 الأسرة (المحيط الأسري):

كان للأسرة الأثر البالغ في تغذية الفكر التربوي لابن نبي، فالبذرة الأولى كانت بفضل ما تلقاه الطفل مالك من جدته "زليخة"، من قصص وروايات شعبية كَوّنت لديه قيم أخلاقية وأكسبته طرق نفسية وتربوية، اعتمدتها في توضيح أفكاره وتبريرها للقراء حيث يقول:

"كانت جدتي تقص لي عدد من قصص ججا، وأنا لأذكر أحداها لما أرى فيها من دلالة بإشارة واحدة على المعنى النفسي، والمنهجي الذي أريد إبرازه".
(مالك ابن نبي، 1984، صفحة 19)

فالجدة كانت ذات تأثير كبير على المنهج التربوي لابن نبي، كيف لا؟ وهو يقر في النص السابق على اعتماده لقصصها ورواياتها في مؤلفاته لدرجة يعتبرها بن نبي مدرسته الأولى التي تكوّنت فيها مداركه. (مالك ابن نبي، 1984، صفحة 16)

وهذا التأثير لم يقتصر على الجدة فقط، بل الوالدين كذلك والظروف الحياتية في أسرته الفقيرة التي علمته المكافحة من أجل توفير لقمة العيش.

حيث يذكر بن نبي:

"ففي العائلة الفقيرة لا بد أن يجوع الصغار متى فقد الأب عمله، غير أن أمي كانت تحول دون ذلك بممارسة الخياطة". (مالك ابن نبي، 1984، صفحة 19)

فالنشاط الفردي ذو البعد الاجتماعي البعيد عن الأنانية الذي يدعوا إليه بن نبي من خلال فكره التربوي، يتجلى في إعجابه بنشاط أمه وحسن تدبيرها وتأقلمها مع وضعها الاجتماعي المزرى في سبيل تأمين القوت.

فالقيم التربوية عند بن نبي كان منبعها الأول الأسرة باعتبارها النواة الأولى للمجتمع فارتسمت في ذاته قبل فكره، حيث يقول عن نفسه وهو طفل صغير:

"سمعت بباب الدار سائلا ينادي: أعطوني من مال الله، ولم أكن عندها قد أكلت من فطيرتي أكثر من النصف، ومع ذلك بادرت بإعطائها له عندما تذكرت واحدة من حكايات جدتي عن الإحسان وثوابه". (مالك ابن نبي، 1984، صفحة 19)

والمعنى أن الجدة أو الأسرة بصفة عامة غرست في الطفل السلوك التربوي الصحيح الذي يتمثل في: حب الخير، والتفاعل مع أفراد المجتمع، هي بلا شك أولى البذور للفكر التربوي البنابي .

2.2.2 الدين (المحيط الديني):

وهو المرجعية الدينية للأستاذ مالك بن نبي، فالفكر البنابي يعتمد على خلفية دينية تكوّن عليها مالك بن نبي في مراحل العمرية مذ كان طفلاً، وهذه من عادات المجتمع الجزائري أن الأطفال الصغار يدخلون الكتاتيب والزوايا والمدارس القرآنية بغية التحصيل القرآني وعلومه، وهذه التربية الدينية لها تأثير مهم في توجّه بن نبي التربوي والنهضوي الحضاري فالمشروع البنابي المعنون "بمشكلات الحضارة" لا يخلو من الحضور الديني سواء كعناوين للمؤلفات مثل: الظاهرة القرآنية، رواية لبيك، أو كنصوص دينية من قرآن وسنة وأهم ما يقوم عليه المشروع البنابي عامة والتربوي خاصة هو مبدأ التغيير الذي يستقيّه بن نبي من الآية الكريمة: [إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ]. (قرآن كريم، سورة الرعد، الآية : 11)

يعني أن مالك بن نبي يركز على أهمية الوقوف مع الذات والتأمل فيها، وتقويمها وتجديدها، فمن هنا يبدأ التغيير. والتغيير الذاتي لا يتحقق إلا بالتربية الصحيحة التي تكسب الفرد الأدوات اللازمة والسبل القويمة لتحقيقه.

كما يتجلى الأثر الديني في الفكر البنابي، من خلال الأحاديث الدينية والتربية النبوية التي تترجمها السنة الشريفة، وهذا ما تزخر به كتابات بن نبي حيث يقول: "وعلى هذا فإن رسالة المسلم في عالم الآخرين لا تتمثل في ملاحظة الوقائع، ولكن في تبديل مجرى الأحداث بردها إلى اتجاه الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلاً: 'من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع بلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان'". (مالك ابن نبي تر: الطيب شريف، 2016، صفحة 72)

الفكر التربوي عند مالك بن نبي

وهذا النص يبين اعتماد بن نبي على حديث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في توضيح أهمية التفاعل العملي المنتج للخير، والمؤثر إيجابيا في حياة الآخرين.

إذن التكوين الديني والقاعدة الدينية حاضرة في الفكر التربوي البنابي باعتبار الدين الموجه نحو التحضر الاجتماعي.

3.2.2 الواقع الاجتماعي:

يتميز واقع بن نبي الاجتماعي بالاستعمار وما يترتب عليه من آثار كالضعف والجهل والتميز العنصري، وهذا ما عاشه وجربه مفكرنا حيث يذكر المؤرخ ابو القاسم سعد الله:

"تجربته مع التناقض الاجتماعي بين الأهالي الجزائريين والمستوطنين الفرنسيين وملاحظاته على معاملة الإدارة الفرنسية، كانت نقوشا عميقة في ذاكرته، ودوافع قوية لتوجهاته". (ابو القاسم سعد الله، 2009، صفحة 265)

فالتريكة الاجتماعية المختلفة والمتناقضة، واختلاف التعامل الفرنسي معها هو ما عاشه بن نبي وأثر على توجهه الفكري، وهو ما جعله يدعوا إلى الاهتمام بالعلوم التربوية التي تكوّن الشخصية وتعمل على ترقية الإنسان للخروج من دائرة التخلف والانحطاط الذي يعانيه المجتمع المسلم.

إذن الأوضاع الاجتماعية كان لها حضور في تكوين الفكري التربوي عند مالك بن نبي الذي اعتبره كحل للمعضلة التي يعانيها المجتمع الجزائري خاصة والمجتمعات العربية والإسلامية عامة كونها عانت أيضا من الاستعمار وأزلامه.

4.2.2 المحيط الغربي:

خلال الفترة الدراسية التي قضاها مالك بن نبي في فرنسا احتك مباشرة بالحضارة الغربية، وكان شديد الإعجاب بالمجتمع الغربي وما عليه من انفتاح عن الآخر، ونشاط وإبداع، وعمل دؤوب، ونبذ الكسل⁽³⁾، عكس ما يعانيه مجتمعه من

بن النذب جموعي

خراب، وهذا الإعجاب بالمجتمع الغربي تركّز على مظاهر حضارية تميزه، كحب العمل والاعتماد على النفس، وهو ما دفع بن نبي إلى التوجّه نحو منهج تربوي يحقق هذه الدروس التي تلقاها من الحضارة الغربية في المجتمع الجزائري المسلم. وعلى سبيل المثال ذكر مالك بن نبي تأثره بالوحدة المسيحية التي كان منظما إليها أثناء تواجده بباريس حيث يقول:

"أما الوحدة فلأنها تغذي في نفسي الجانب الروحي، وتعرض على فكري اهتمامات وموضوعات أخرى كنت في جوها الخاص أعقد الصلة لتقائيا بن القيم الاجتماعية والتقنية". (ابو القاسم سعد الله، 2009، صفحة 279)

وهذا يعني تأثير هذه المنظمة المسيحية في توجهات بن نبي واهتماماته خاصة بالجانب الروحي للفرد وبعده الاجتماعي.

ومن محطات التأثير بالمجتمع الغربي، المعاشرة الزوجية وذلك من خلال زواجه بفتاة فرنسية كثيرا ما أثني عليها في كتاباته، "معبرا عن تقديره لها بصفاتها زوجة مدبرة وربة بيت حاذقة ومثقفة ذكية ذات ذوق جمالي رفيع معترفا بأثرها في نموه الفكري وتشجيعها له على المضي في دراسته العلمية و نشاطه الفكري". (فوزية بوريون، 2010، صفحة 115)

بمعنى أن حياته الزوجية كان لها بالغ الأثر على فكره التربوي، وذلك من خلال إعجابه بأسلوب زوجته والغرب بصفة عامة والثقافة التي كانت تتمتع بها، وهو ما يترجم اعتبار بن نبي التربية كعملية تثقيف.

إذن أن مظاهر الحضارة الغربية وما عايشه بن نبي وهو في المجتمع الفرنسي وانطباعه الإيجابي عن المعاملات الإنسانية التي تتخلله وانعكاسها عن الحياة العامة، كان دافعا ورافدا في نفس الوقت لتوجهه التربوي لأنه أدرك من خلال هذه التجربة مدى أهمية التربية في بناء الحضارات الإنسانية.

3.2 المصادر الفكرية:

الفكر التربوي عند مالك بن نبي

كان مالك بن نبي نهم المطالعة، وقراءاته الكثيرة والمتعددة لا شك لها دورا مهم في تكوين وعيه وتراثه الفكري التربوي، فكانت بمثابة مصادر فكرية لمشروعه التربوي ومن هذه المصادر نذكر:

ابن خلدون:

يعرف بن نبي بابن خلدون القرن العشرين، وهذا لشدة تأثيره به كون بن نبي عاش ما عاشه ابن خلدون من مظاهر التخلف والانحطاط الذي أصاب المجتمع الإسلامي، فأصبح كل منهما يبحث عن وثبة حضارية وعودة لمضمار الحضارة، ومن جملة ما تأثر به بن نبي من دروس خلدونية، هو المنهج النقدي كمنهج تربوي يعتمد فيه بن نبي على نقد الواقع باعتباره أول الطريق في التغيير التربوي النفسي.

جمال الدين الأفغاني:

التربية عند بن نبي لها علاقة وطيدة بالتيار الإسلامي، خاصة ما جاء به الزعيم جمال الدين الأفغاني، لأنه في الحقيقة لا إصلاح للمجتمع المسلم دون الاعتماد على التربية، ومن أبرز ما أثر به جمال الأفغاني في الفكر التربوي البناني، فكرة المؤاخاة التي دعا إليها كذلك بن نبي باعتبارها أبرز علاقة تحقق للحملة الاجتماعية، وتبرر قوة التفاعل الفردي مع الآخرين المحيطين، معبرة عن حقيقة الانفتاح عن الآخر ومشاركته في كل المجالات، مسقطه بذلك كل أشكال الأنانية الفردية وهذه قمة التربية الإسلامية، فهي القاعدة التي أرساها الرسول الكريم صلوات ربي عليه وسلامه بين المهاجرين والأنصار حيث يقول بن نبي في هذا الصدد :

"فالمؤاخاة الفعلية هي الأساس الذي قام عليه المجتمع الإسلامي مجتمع المهاجرين والأنصار". (مالك بن نبي، تر: الصبور شاهين، 2019، صفحة 52)

إذن فهي القاعدة التي أقرتها المدرسة التربوية النبوية، وطبقها بين أطباق المجتمع المسلم محققة بها لحملة اجتماعية وتكافل ونشاط منقطع النظير، من خلاله أصبحت الدولة الإسلامية أقوى دول العالم.

محمد عبده:

قراءة بن نبي لمحمد عبده وخاصة كتابه "رسالة التوحيد" ساعدته على الإحاطة الأكثر بواقع العالم الإسلامي حيث يصف ذلك قائلاً:

"كتاب محمد عبده، أعطاني مسنداً للحكم على فقره المحزن اليوم".
(مالك بن نبي، تر: الصبور شاهين، 2019، صفحة 66)

بمعنى كتاب "رسالة التوحيد" أدرك من خلاله بن نبي ضعف المجتمع الإسلامي وانهيائه حضارياً ولم يقف الأمر هنا، هذا الوضع الذي قاد بن نبي إلى حل تربوي متأثراً كذلك بما ركز عليه الشيخ عبده من وعظ وتربية حيث يذكر فهدى جدعان: "فرأى رجل الدين الشيخ محمد عبده أن المشكلة لا تحل إلا بإصلاح العقيدة والتربية والوعظ". (فهدى جدعان، 1998، صفحة 416)

بمعنى أن محمد عبده اعتمد على التربية والوعظ للمسلمين بغية التغيير الاجتماعي الذي رأى أنه لا يتحقق إلا بتغيير الذات، حيث يذكر بن نبي متأثر به قائلاً:

"فلقد كان الشيخ عبده يعلم علم اليقين أنه لكي يتحقق الإصلاح يجب أن يبدأ خطواته الأولى من الفرد". (مالك ابن نبي، تر: عبد الصبور شاهين، 1986، صفحة 53)

وهذا النص يبين أن اهتمام بن نبي بالتغيير الذاتي وإصلاح الفرد وتربيته يحمل في طياته بذور تأثر بأفكار محمد عبده.
وأخيراً يمكن القول إن الفكر التربوي البنابي كان نتيجة لظروف ووقائع وقراءات.

3. أسس وشروط الفكر التربوي البنابي:

انطلق مالك بن نبي في مشروعه التربوي من أسس ومركزات كانت بمثابة المسلمات التي يجب مراعاتها وعدم التخلي عنها، ضامنة بذلك خصوصية الموضوع الموجه له هذا المشروع، وتتمثل هذه الأسس في:

1.3 مراعاة الإطار الاجتماعي:

فمالك بن نبي ركز على خصوصية الفئة المستهدفة من مشروعه التربوي، فالخصوصية الاجتماعية ليست عامة وإنما مختلفة باختلاف المجتمعات وتعددتها، لذلك هو ضد استيراد التجارب الغربية وتطبيقها على المجتمع المسلم، وللأسف هذا ما هو واقع الآن من استيراد للبرامج التربوية والمناهج التربوية الغربية-وخاصة الفرنسية بالنسبة للجزائر-وتطبيقها على مجتمعاتنا هذه النقطة يرفضها مالك بن نبي ويجعل من الإطار الاجتماعي أساس لا يمكن إغفاله في التحضير لكل مشروع تربوي هادف.

فالمناهج المستوردة واختلافها عن روح المجتمع المسلم يؤثر سلبا عن بنية المجتمع بدل خدمته وتحقيق تماسكه، حيث ينقد مالك بن نبي هذا المنهج قائلا:

"لم يكن ذلك العلم استبطانا لحاجة مجتمع يريد معرفة نفسه ليحدث تغييرها، بل لم يكن استظهارا لبيئة نبحث عنها لتغيرها". (مالك ابن نبي، تر: عبد الصبور شاهين، 1986، صفحة 84)

والمعنى من النص أن العلوم الاجتماعية والتربوية الغير أصلية لا تحقق الهدف المرجو والمنشود، المتمثل في التغيير الاجتماعي والتحضر، لأنه لا يبين حقيقة الحالة الاجتماعية المستهدفة فهو غريب عنها. إذن مالك بن نبي يدعوا إلى التأهيل الاجتماعي الذي ينتهجه في مشروعه التربوي.

2.3 مراعاة الإطار الديني:

تكملة لفكرة التأهيل في التربية، فإنها لا تتعلق فقط عند مالك بن نبي في الجانب الاجتماعي، وإنما حتى في الجانب الديني الروحي. فالدين هو عامل أساسي يقوم عليه المنهج التربوي لأن الدين تربية وأخلاق ومعاملات قبل كل شيء، وهو المنظم للعلاقات الاجتماعية من جهة، وموجه

بين الذيب جموعي

للمطاقة الحيوية من جهة أخرى، لذلك أعتده مالك بن نبى لتحقيق النشاط والتفاعل الاجتماعي المشترك، والتاريخ الإسلامي دال على ذلك من خلال ملامح تطور المجتمع الإسلامي نتيجة فاعلية الفكرة الدينية وتفجيرها لطاقات الإنسان المسلم، فحين يتربى النشئ الإسلامي على الأفكار الدينية المتجذرة، فإنه يتحقق كمال المجتمع المسلم ونهضته، ويقول مالك بن نبى:

"الوصية الروحية التي خلقها الرسول لمن يأتي بعده من أجيال المسلمين ومعنى صريح بحقوق الإنسان فيقول: "يأبها الناس أن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لأدم وأدم من تراب وإن أكرمكم عند الله أتقاكم ليس العربي على عجمي ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض لا لأبيض على أحمر فضل، إلا بالتقوى..." (مالك بن نبى، 2019، صفحة 152)

فالدين هو المحقق لنشأة الأجيال وتربيتها على فكرة المساواة، والحقوق، والواجبات والإنسانية، وهذه الأهداف التربوية تفقد معناها وتحققها إذا لم يراعى الجانب الديني في المشروع التربوي.

فهذه المعاني التربوية تتحقق فقط إذا قام المنهج التربوي على الفكرة الدينية، فمثلا يذكر مالك بن نبى:

"وما يعنيه الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف: "إنما هي أعمالكم ترد إليكم كما تكونوا يول عليكم"، إن الحديث الشريف يعبر عن نظرة أغوار سياسية واجتماعية بعيدة، فيستطيع تلخيصها على الصعيد التربوي في هذه المقدمة: إذا أردت أن تصلح أمر الدولة فأصلح نفسك. (مالك بن نبى، 2019، صفحة 40)

يعني ذلك أن بن نبى في فكره التربوي مرتكز على الدين ومنطلق منه، لأنه هو المميز الأول للمجتمع الإسلامي عن غيره من المجتمعات هذا من ناحية، كما انه يمثل بعدا إيديولوجيا محققا بذلك عمومية وشمولية التربية لكل فرد مسلم،

الفكر التربوي عند مالك بن نبي

مركزا دائما على الجانب الفردي قبل الجانب الاجتماعي، أي التغيير الفردي والتربية الفردية التي بها تتحقق التربية الاجتماعية. وعلى هذا نتوصل إلى أن بن نبي ركز على الدين كأساس تربوي لإيمانه و قناعته بقوته التأثيرية على إحداث التغيير الفردي والجماعي، وهو ما يعيد له الدور الاجتماعي و التربوي و يمنحه قيمته التاريخية.

3.3 مراعاة الإطار الثقافي:

يقوم الفكر التربوي البنابي أيضا على أساس مهم، وهو الثقافة من حيث كون الإنسان كائن ثقافي، لذلك هناك تداخل كبير بين الثقافة والتربية حسب "بن نبي"، حيث يعتبر التربية عملية تثقيف، وهنا نفهم أن هذا التثقيف لا بد أن يكون أصيلا، مستثمرا العناصر الثقافية والموروث الثقافي للمجتمع، لذلك يقول بن نبي: "الثقافة ليست علما خاصا لطبقة من الشعب دون أخرى، بل دستور تتطلبه الحياة العامة بجميع ما فيها من ضروب التفكير والتنوع الاجتماعي، وخاصة إذا كانت الثقافة في الجسر الذي يعبره الناس إلى الرقي والتمدن، فإنها أيضا ذلك الحاجز الذي يحفظ بعضهم الآخر من السقوط من أعلى جسر إلى الهاوية". (مالك ابن نبي، تر: عبد الصبور شاهين، 1986، صفحة 77)

والمعنى من هذا النص أن الثقافة هي تربية اجتماعية، لأنها فضاء للتنوع الاجتماعي والفكري كما أنها تعمل على توجيه الفرد نحو التحضر وتحفظه من الانحطاط والتخلف، وهذا يعني أن الأساس الثقافي القوي ضروري لتحقيق الأهداف التربوية لذلك يقول بن نبي:

"إن الثقافة تحتوي بصفة عامة عددا من الفصول هي: الأخلاق، والجمال، والمنطق العملي، والصناعة الفنية، ولكن الأمر يقتضي أن نتساءل: كيف ينبغي أن ندركها في صورة برنامج تربوي يصلح لتغيير الإنسان

الذي لم يتحضر بعد". (مالك ابن نبي، تر: عبد الصبور شاهين، 1986، صفحة 100)

وهذا يعني أن الإنسان المستهدف والمراد إعادته إلى مضمار الحضارة لا بد له من توجيه أخلاقي، وجمالي، وفكري، وعملي، وهذا لا يكون إلا بالاعتماد التربوي عن الخزان الثقافي للفرد.

كما أن التأهيل الثقافي يعمل على تحصين المنهج التربوي من الثقافات الداخلية، ويعزز الهوية ويحمي من الغزو الثقافي خاصة في عصرنا هذا عصر التطور التكنولوجي والعولمة، وما المظاهر التي نلاحظها في المجتمع المفارقة تماما لموروثنا الثقافي، من مثلية وتحول جنسي، وعري... وغيرها، وتفشيها في مجتمعاتنا الإسلامية والعربية إلا لضعف المضاد الثقافي، أو لنقل عدم توظيفه في مناهجنا التربوية على الوجه الصحيح.

إذن مالك بن نبي نبه على حسن استخدام العامل الثقافي في المنهج التربوي، لأهميته في تكوين الفرد والجماعة معاً.

4. أهداف الفكر التربوي البنائي:

يسعى بن نبي من خلال مشروعه التربوي للوصول وتحقيق عدة أهداف يمكن تلخيصها فيما يلي:

1.4 إعادة بناء الشخصية الإسلامية:

الإنسان المسلم عند بن نبي هو إنسان ما بعد الموحدين، الكائن الخارج عن دورة الحضارة، لذلك يسعى من خلال فكره التربوي إلى إعادة بناء شخص المسلم وتأهيله مجددا للقيام برسالته الحضارية، هذه الرسالة المهمة التي تحقق وجوده على المستوى الفردي والاجتماعي والإنساني.

فالتربية هي السبيل إلى تكوين الفرد كمؤثر لا كمتأثر، وهذا يبرر دورها في تكوين شخصية فرد فيه قوة وإمكان يتيحان له الفرصة لأن يكون مؤهلاً للبناء والتشييد والتكيف في المجالين المادي والمعنوي في ظل حياة إنسانية فاعلة

محترمة، (السعيد هيمة، 2015، صفحة 120) وبذلك يصبح هدف التربية تكوين القادة وهذا ما دأبت عليه مدرسة النبوة ومدرسة الخلافة من قبل، فيذكر مالك بن نبي موقف تربوي للخليفة علي كرم الله وجهه فيقول:

"وظرف آخر يسلم علي الراية إلى زياد بن النضر، ويقول له: قد هذه الفئات وأستفد من رأي عالمهم وعلم جاهلهم". (مالك بن نبي، 2019، صفحة 192)

وهذا ما تحتاجه الأمة اليوم من فكر قيادي رائد يعمل على تغيير الواقع الاجتماعي المنحط، فتكوين النخبة هو ما تعمل على تحقيقه التربية حسب بن نبي فيقول:

"فيجب أولاً أن نصنع رجالاً يمشون في التاريخ، مستخدمين التراب والوقت، والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى". (مالك بن نبي، تر: عبد الصبور شاهين، عمر كامل مسقاوي، 1986، صفحة 75)

فنفهم من النص أن بن نبي يعطي التربية بعداً حضارياً مؤكداً على مركزية الرجال (الإنسان الفعال)، لأن عالمنا الإسلامي مفتقر للرجال والقادة، وهذا الافتقار يمس بالأخص الجزائر فيقول بن نبي:

"فهناك هم بحاجة إلى مؤسسات، بينما نحتاج هنا إلى الرجال فمن الرجل تنبع المشكلة الإسلامية بأكملها وبخاصة في الجزائر". (مالك بن نبي، تر: عبد الصبور شاهين، عمر كامل مسقاوي، 1986، صفحة 75)

لا يقصد بن نبي بلفظ الرجال الذكر دون الأنثى، وإنما تعرض للمصطلح تعبيراً على قوة المسلم ونشاطه، فالتنمية البشرية هي ما تحتاجه بلادنا وهنا يحضرنا موقف الأستاذ بن نبي مع الرئيس هواري بومدين رحمه الله أثناء الثورة الزراعية، حين نصح السيد الرئيس بالثورة التربوية التعليمية كونها أهم من الزراعية لأن الاستثمار في الإنسان يقود إلى الاستثمار في كل المجالات تلقائياً والعكس ليس صحيحاً.

إذن البعد الشخصي للتربية عند بن نبي يكمن في تأهيل الفرد المسلم والعودة به إلى دوره الحضارة ليكون مؤثرا لا متأثرا، منتجا لا مستهلكا، نشطا لا كسولا خاملا، أي إنشاء شخصية متوازنة، متخلقة، مفكرة، متفاعلة، تكون لبنة أساسية في إعادة بناء الحضارة الإسلامية، أي الارتقاء بالمسلم من درجة الإنسان النصف أو المتحلل كما يصفه بن نبي، إلى الإنسان الكامل القادر على تحقيق الوثبة الحضارية المرجوة.

2.4 إعادة بناء مجتمع متكامل:

يهدف العمل التربوي كذلك حسب بن نبي إلى بناء مجتمع فاضل، فالبعد الاجتماعي للمشروع التربوي البنابي يتجلى من خلال كتابه "ميلاد مجتمع"، الذي يوضح هدف التربية الاجتماعية في بناء مجتمع متكامل في كافة الميادين والمجالات السياسية، الاقتصادية، الثقافية، الدينية... الخ، وذلك حسب لا يتأتى إلا من خلال ما يسميه بالاندماج الاجتماعي أي تأهيل الفرد المسلم في كل مراحل العمرية، وتمكينه من المساهمة في التفاعل الاجتماعي وبهذا يتجه المجتمع الإسلامي وجهته الصحيحة نحو إقامة حضارة أصلية متجددة وليست مقلدة، فيكون بذلك نجاته من تيمه وشفاءه من مرضه المزمن .

وهنا يسعى مالك بن نبي إلى ميلاد مجتمع ما بعد الاستقلال من خلال اندماج الفرد في شبكة العلاقات الاجتماعية وفق مبدأي التنحية والانتقاء. (مالك ابن نبي، تر: عبد الصبور شاهين، 1986، صفحة 67) أي التخلي عن التقاليد والعادات والموروث المخالف للروح الاجتماعية، مثل الموروث الاجتماعي من الحقبة الاستعمارية، وتعويضه بمبادئ جديدة تتماشى مع حاجات المجتمع الراهن.

فمثلا مكافحة الفساد تقتضي التكامل بين أفراد المجتمع ومؤسساته، خاصة المؤسسة الأمنية وهذا مقتضى من مقتضيات العصر الحالي، وسلوك فردي

ينم عن روح المواطنة وهو ما يجب أن يكون وليس التقاضي عن الفساد بحجة عادات موروثية من الاستعمار تنقص من قيمة الفرد كونه مخبرا. إذن التربية في بعدها الاجتماعي تسعى إلى تحقيق مجتمع الحضارة، الذي يتميز بكل مقومات الحياة الناجحة

5. الخاتمة

وختاما يمكن التوصل إلى أن المشروع التربوي البنابي، مشروع متأصل من الحياة اليومية والظروف المعيشية للمفكر بن نبي، مما جعله ذلك يقوم على أسس دينية وثقافية متفاعلة ومتكاملة في جو اجتماعي موحد وهو المجتمع الإسلامي.

أي مشروع مؤسس على خصوصية المجتمع المسلم وما يتميز به من معايير ضامنة لوحده من جهة، وداعمة له في إقلاعه الحضاري من جهة أخرى، وهذا حسب بن نبي إذا ما تم التعامل معها بإيجابية، وذلك من خلال التربية الفردية والاجتماعية. ففلسفة التربية البنابية تقوم على التكامل بين الفرد والمجتمع والتأثير المتبادل بينهما، لأن المهمة الحضارية ليست في يد الفرد فقط، وإنما في اندماجه الفعال مع المجتمع ومكوناته خالقا بذلك الفضاء العام حسب هابرماس، ومشروع مجتمع متكامل ويسير نحو حضارة متجددة باستمرار مواكبة لتطورات العصر.

6. قائمة المراجع:

1. أبو القاسم سعد الله. (2009). على خطى المسلمين. الجزائر: الطبعة الأولى.
2. السعيد هيمة. (2015). حديث التربية. الجزائر: الطبعة الأولى.
3. فهمي جدعان. (1998). أسس التقدم عند مفكري الإسلام. الطبعة الثالثة.
4. فوزية بوريون. (2010). مالك بن نبي. دمشق سوريا: الطبعة الأولى.

5. قرآن كريم، سورة الرعد، الآية 11 :
6. مالك ابن نبي تر: الطيب شريف. (2016). كومنويلث اسلامي. الطبعة 01.
7. مالك ابن نبي. (1984). شاهد على القرن. بيروت لبنان: دار الفكر، ط. 02.
8. مالك ابن نبي، تر: عبد الصبور شاهين. (1986). ميلاد مجتمع. الجزائر: دار الفكر.
9. مالك بن نبي. (2019). القضايا الكبرى. بيروت لبنان: الطبعة 5.
10. مالك بن نبي. (2019). بين الرشاد والتهيه. بيروت لبنان: الطبعة الاولى.
11. مالك بن نبي، تر: الصبور شاهين. (2019). وجهة العالم الإسلامي. دمشق: الطبعة الثانية.
12. مالك بن نبي، تر: عبد الصبور شاهين، عمر كامل مسقاوي. (1986). شروط النهضة. دمشق سوريا: بدون طبعة.